وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى
وَلَا تَحْزَنِى ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

وأوحينا الى أمّ موسى: حين ولدت موسى(١) عن قتادة: قذفنا في قلبها(٢) وحياً جاءها من الله وليس وحي نبوّة(٣) عن السّدّيّ قال: أمر فرعون أن يذبح من وُلِدَ من بني إسرائيل سنة ويتركوا سنة. فلمّا كان في السّنة الّتي يَذْبحون فيها حملت بموسى، فلمّا أرادت وضعه حَزِنَتْ مِنْ شأنه فأوحى الله إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم(٤) ذكروا أنّ فرعون لمّا أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يُفْني بني إسرائيل، فيَلُون هم ماكانوا يلونه من الأعمال الشّاقة، فقالوا لفرعون: إنّه يوشك - إن استمرّ هذا الحال - أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لايعيشون، ونساؤهم لايمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً. فولد هارون عليه السّلام في السّنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى عليه السّلام في السّنة الّتي يقتلون فيها الولدان(٥): «عن السّدّيّ قال: كان من شأن فرعون أنّه رأى رؤيا في منامه أنّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وأحرقت بيوت مصر،

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٠

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٠

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٠

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٠

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣١

فدعا السّحرة والكهنة والقافة(١) والحازة(٢) فسألهم عن رؤياه فقالوا له يخرج من هذا البلد الّذي جاء بنو إسرائيل منه، يعنون بيت المقدس، رجلٌ يكون على وجهه هلاك مصر. فأمر ببني إسرائيل ألاّ يولد لهم غلامٌ إلاّ ذبحوه، ولاتولد لهم جاريةٌ إلاّ تُرِكت..(٣)

في اليمّ: في البحر وهو النّيل(٤)

أوحى الله تعالى إلى أمّ موسى عليه السّلام بعد أن وضعته في العام الّذي يقتل فيه فرعون الطّاغية الذّكور من أطفال بني إسرائيل بأن ترضعه وتبقيه عندها مادامت تشعر بالأمان والاطمئنان عليه، فإذا خافت عليه أن يفتضح أمره، عليها أن تضعه في التّابوت، وهو وعاءٌ كالصّندوق(٥) وأن تلقيه في نهر النّيل الغزير الماء السّريع الجريان، وتنهى الآية الكريمة أمّ موسى عليه السّلام أن تخاف على وليدها وفلذة كبدها رغم أنّ الباعث لأمرها بإلقاء موسى في البحر هو الخوف عليه، فسبحان الله تعالى الكبير المتعال القادر على كلّ شيء الّذي لايعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. كما تنهي الآية الكريمة أمّ موسى أن تحزن لفراق وليدها وفلذة كبدها. وتبشّرها الآية الكريمة بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يردّ طفلها إليها، وبأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يجعل موسى عليه السّلام واحداً من المرسلين. والمعروف أنّ موسى عليه السّلام هو كبير أنبياء بني إسرائيل وأحد أولي العزم الخمسة من الرّسل وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّدٌ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

إنّ في الآية الكريمة أمرين: ﴿أرضعيه﴾ و: ﴿فألقيه﴾ ونهيين: ﴿ولاتخافي ولاتحزني﴾ وبشارتين: ﴿إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

---

(١) القافة، جمع القائف وهو الّذي يتتبّع الآثار ويعرفها.

(٢) يُفهم من مادّة: «حوز» في لسان العرب أنّ الحازة هم الّذين لديهم سلطة تخوّلهم تحصيل ماائتمنوا عليه.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/٢١

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ابوت» ١/٩٣

فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

فالتقطه آل فرعون: فأصابوه وأخذوه. وأصله من اللُّقَطة. وهو ماوُجد ضالاً فأُخذ. والعرب تقول لما وَرَدَتْ عليه فجأة من غير طلبٍ له ولاإرادة: أصبته التقاطاً ولقيت فلاناً التقاطاً(١) وآل الرّجل: أهله وعياله، وأتباعه وأنصاره(٢) قال بعضهم، عَنَى بذلك جواري امرأة فرعون، وقال آخرون: بل عنى به ابنة فرعون، وقال آخرون: عنى به أعوان فرعون(٣)

ليكون لهم عدواً وحزَنا: قال ابن إسحاق وغيره: اللّام هنا لام العاقبة لا لام التّعليل، لأنّهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولاشكّ أنّ ظاهر اللّفظ يقتضي ماقالوه. ولكن إذا نظر الى معنى السيّاق فإنّه تبقى اللّام للتعليل، لأنّ معناه أنّ الله تعالى قيّضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحَزَناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال: ﴿إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾(٤) يقول: ليكون لهم عدواً في دينهم وحَزَناً على ماينالهم من المكروه(٥) والحزن بفتح الحاء والزّاي مصدر من حَزَنا حُزنا. والحُزْن بضمّ الحاء وتسكين الزّاي الاسم كالعَدَم والعُدْم ونحوه(٦).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢١

(٢) المعجم الوسيط: «أول» ١/ ٣٣

(٣) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٢١

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٢ وانظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٢

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٢

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٢

كانوا خاطئين: الخطأ العدول عن الجهة. وذلك أضرب منها أن يريد غير ماتَحْسُن إرادته فيفعله وهذا هو الخطأ التّامّ المأخوذ به الإنسان. يقال: خَطِىء يخطأ خِطْأ وخِطْأة. قال تعالى: ﴿إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ ومنها أن يريد مايَحْسُن فعله ولكن يقع منه خلاف مايريد فيقال: أخطأ إخطاءً فهو مخطىء. وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل. وهذا المعنى بقوله عليه الصّلاة والسّلام: «رُفِعَ عن أمّتي لخطأ والنّسيان» وبقوله: «من اجتهد فأخطأ فله أجر»(١)

شاء الله تعالى أن يحمل نهر النّيل السّريع الجري الغزير الماء التّابوت الّذي فيه الطّفل الرّضيع موسى عليه السّلام ويوصله داخل حدود قصور فرعون المطلّة على النّيل والّتي يتفحّص الحرس كلّ مايحوم حولها فكيف بما يتغلغل في حِماها. وهكذا التقط آل فرعون وجنوده موسى عليه السّلام ليكون عليهم بإرادة الله تعالى عدواً في الدّين وحَزَنا بسبب مايصلهم على يديه مِنْ مكروه. إنّ فرعون مصر الطّاغي، ووزيره هامان الباغي، وجنودهما الأشرار، كانوا خاطئين يأتون أقبح الذّنوب وأسوأ الأفعال عن عمدٍ وسبق إصرار، دون خوفٍ من الله تعالى، ولا حياءٍ من عباده عزّ وجلّ.

---

(١) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خطأ» ١/ ٢٠١

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قرّة عين لي ولك: هذا قرّة عينٍ لي ولك يافرعون. فقـرّة عينٍ مرفوعةٌ بمضمر هو هذا أوهو(١) وقيـل لِمَنْ يُسَرّ به: قـرّة عينٍ، كمـا في الآية الكريمة. قيل: أصله من القُـرّ، بضمّ القاف، أي البرد، فقَـرَّت عينُه قيل: معناه بَرَدَتْ فصحَّت. وقـيل بل لأنّ للسّرور دمعةً باردةً قارّةً وللحُزْن دمعة حارة(٢).

وهم لايشعرون: بما هو كائنٌ من هلاكهم على يديه(٣)

ألقى الله سبحانه وتعالى محبة موسي عليه السّلام وهو طفل، في قلب كلّ من وقعت عينه عليـه باستثناء الأشقـياء كفرعون الطّـاغية. جاء في سورة طه(٤) قـول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولقد منّنّا عليك مرّة أخرى. إذ أوحينا إلى أمّك مايُوحَى. أن اقذفـيه في التّابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقـه اليمّ بالسّاحل يأخذه عـدوٌّ لي وعدوٌّ له. وألقيت عليـك محبّة منّـي ولِتُصْنَعَ على عيني﴾ ونستطيع أن نفـهم أنّ الّذين التقطوا التّابوت مِنْ حِمى آل فرعون بالسّـاحل كان عليهم أن يعرفوا مابداخل التّابوت، إمّا بباعثٍ داخليّ وهو الـقيام بواجبهم، وإمّا بباعث بكاء الطفل مثـلاً، بسبب الجوع مَثَـلاً. ولمّا كان وجه موسى عليـه السّلام الصّبـيح البريء يملك قلب من وقعت عينه عليه فقد كان لزاماً على ملتـقطي التّابوت أن يحيطوا آل فرعون علماً به. ولمّا كان الموجـود في التّابوت طفـلاً لاحول له ولاطول ولم يتـأكّد الجنود المأمـورون بقتل أطفـال بني إسرائيل الذّكور من حقيـقة القوم الّذين ينتمي إليهم الطّفل فكان لزاماً إحاطة كـبير آل فرعون

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٢

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قرّ» ٢/ ٥١٥

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٣

(٤) الآيات ٣٧ ـ ٣٩

علماً بحال الطّفل قبل قتله إن كان من بني إسرائيل، وشاء الله تعالى الّذي لاراد لقضائه أن تكون الكلمة والقول الفصل في تلك اللّحظة لامرأة فرعون، وقَعَتْ عين آسية بنت مزاحم(١) امرأة فرعون على الطّفل موسى عليه السّلام الّذي ألقى الله سبحانه وتعالى محبّته في قلبها، وشاء الله تعالى ألاّ يكون لهذه المرأة ولدٌ من فرعون(٢) وكأنّ غريزة الأمومة استيقظت في أعماقها حينما أبصرت موسى عليه السّلام الطفل الوسيم.

إنّ امرأة فرعون الّتي ألقى الله تعالى محبّة الطّفل موسى عليه السّلام في قلبها وأراد عزّ وجلّ أن يُصْنَعَ على عينه في بيتها عبّرت عن صادق شعورها في القول لفرعون زوجها: ﴿قرّة عينٍ لي ولك﴾ والمعنى: هو قرّة عينٍ لي ولك أو: هذا قرّة عينٍ لي ولك كما أنّها نهت الأعوان عن قتله في القول: ﴿لاتقتلوه﴾ وعيّنت سببين، عامّاً وخاصّاً، للنّهي عن قتله، وذلك في القول: ﴿عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا﴾ ولايخفى التّدرّج البديع في هذا القول. إنّ الانتفاع من هذا الطّفل مستقبلاً شرطٌ لتبنّيه واتّخاذه ولداً. وجاء على لسانها الفعل: ﴿عسى﴾ الّذي يدلّ على التّرجّي في المحبوب دليلاً على رجاحة عقلها. لقد حدث كلّ ذلك بإرادة الله تعالى. ولايشعر آل فرعون أنّ تدميرهم في تدبيرهم، وأنّ هلاكهم على يد موسى عليه السّلام.

والحقيقة أنّا نودّ أن نقف قليلاً عند القول: ﴿قرّة عين﴾ لتبيين مظهرٍ من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

إنّ لفظة: قرّة، من القُرّ، بضمّ القاف، بمعنى البرد. وإن القول: ﴿قُرّة عين﴾ بمعنى برد العين في المحسوسات أساساً، فكيف أفاد هذا القول: ﴿قرّة عين﴾ معنى سعادة النّفس، وانشراح الصّدر، وسرور القلب؟

مِنَ البيّن أنّ ثمّة تحوّلاً من المحسوس الى المعنويّ. ومِنَ المعروف أنّ جزيرة العرب مشهورةٌ بسمومها اللافح خلال أيام الحرّ، وأكثر أيّامها حرّ، وإنّ من أجزاء الجسم الّتي يكثر تأذّيها من الحرّ العين، وكما تتأذّى العين من الحرّ تطيب بالبرد. وهذه الحقيقة يعرفها من قدّر له أن يعيش في بيئتين حارّةٍ وباردة. ولمّا كانت العين تطيب بالبرد وتصحّ بالهواء العليل والنّسيم البليل ويسرع تفاعلها مع البرد عُبّرَ عن ذلك الارتياح بالقول: «قرّة العين» ولمّا كان

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٢

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٣

لارتياح العَين الأرهفِ إحساساً ولهناءةِ الجسد عموماً أثرٌ حسنٌ في النفس أفاد القول: «قرّة العين» في وقتٍ لاحق، معنى السّعادة والانشراح، البشر والحبور. وكثيراً ماجاء على لسان العرب هذا القول وقرينه في مثل تعبيرهم عن السّعادة عن الحيّ أو الشّيء بالقول: قرّة العين وبرد الفؤاد. وهكذا تحوّل القول إلى المرحلة التّالية المعنويّة، وبهذا المعنى جاء القول: ﴿قرّة عينٍ لي ولك﴾ والله تعالى أعلم.

وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً: فارغاً من كلّ شيءٍ إلاّ من همّ موسى(١)

إن كادت لتبدي به: إن مخفّفة من الثقيلة مهملة وجوباً (٢) واسمها محذوف أي إنّها(٣) واللاّم هي الفارقة(٤) بين النّافية والمخفّفة من الثّقيلة، والباء سببيّة، أي تبدي القول بسببه(٥) إنّه ابنها من شدّة وجدها (٦) بأن تقول: يابناه(٧) ويابنيّاه(٨).

لولا أن ربطنا على قلبها: لولا أن عصمناها من ذلك بتثبيتناها وتوفيقناها للسّكوت منه(٩) وألهمناها الصّبر وشددنا قلبها بنور الايمان(١٠) وذلك اشارةٌ الى نحو قوله تعالى(١١): ﴿هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٢٣ و٢٤

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٣٦ والجلالين

(٣) الجلالين

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٣٦

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٣٦

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/٢٥

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/٢٥

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/٢٥

(١٠) انظر تفسير الطّبري ١٥/١٣٧

(١١) سورة الفتح ٥

إيمانهم. ولله جنود السّماوات والأرض. وكان الله عليماً حكيماً﴾ وبنحو هذا النّظر قيل: فلانٌ رابط الجأش(١)

لتكون من المؤمنين: عصمناها من إظهار ذلك وقيله بلسانها وثبّتناها للعهد الّذي عهدنا اليها لتكون من المؤمنين بوعد الله الموقنين به(٢).

بعد أن ألقت أمّ موسى عليه السّلام بتابوت ابنها في نهر النّيل الكثير الماء السّريع الجريان امتثالاً لإيحاء الله تعالى إليها وثقةً في وعده جلّ وعلا أصبح فؤادها فارغاً عن كلّ شيء إلاّ من همّ موسى عليه السلام، وهي الأمّ الرّءوم بطبعها، وقد جاشت عواطف أمّ موسى عليه السّلام الى الحدّ الذي كادت تعلن معه للملأ أن الطفل الذي التقطه آل فرعون هو ابنها، مع أن ذلك الإعلان يعني هلاكه علي يد آل فرعون الذين يقتلون أطفال بني اسرائيل الذّكور. وإن الّذي حال دون جَيَشان عاطفة أمّ موسى عليه السّلام أن يفيض فتكشف سرّ ابنها وتعلن أنّه ولدها تثبيت الله تعالى فؤادها، وربطه على قلبها، وإنزال السّكينة عليها لتكون من المؤمنين حقاً بما أوحى الله تعالى إليها بأن ابنها سينجو بإذن الله تعالى من الغرق في اليمّ، من القتل على يد فرعون الطّاغية، وسيكون واحداً من رسل الله تعالى، بل واحداً من أولي العزم الخمسة من الرّسل.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ربط» ١/ ٢٤٧

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٥

وَقَالَتْ

لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وقالت لأخته قصّيه: القصّ تتبّع الأثر، يقال: قَصَصْتُ أثره. والقَصص الأثر(١) يقول: قصّي أثر موسى أتّبعي أثره(٢) كيف يصنع به(٣) وانظري ماذا يفعلون به(٤).

فبصرت به عن جنب، فبصرت بموسى من بعد لم تدن منه ولم تقرب لئلا يعلم أنّها منه بسبيل. يقال منه: بصرت به وأبصرته لغتان مشهورتان(٥) عن مجاهد: ﴿عن جنب﴾ قال: عن بعد. قال ابن جريج: هي على الحدّ في الأرض(٦) وموسى يجري به النّيل وهما متحاذيان كذلك. تنظر إليه نظرةً والى النّاس نظرةٍ(٧).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قصص» ٢/ ٥٢٢

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٥

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٥

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٥

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٥

(٦) الحدّ في الأرض: أي السّاحل

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٦

وهم لايشعرون: وقوم فرعون لايشعرون بأخت موسى أنّها أخته(١).

يكفلونه لكم: يضمّونه لكم(٢) بالإرضاع وغيره(٣) والكفالة الضمان(٤).

وهم له ناصحون: النُّصح تحرّى فعلٍ أو قولٍ فيه صلاح صاحبه(٥) وهو من قولهم: نصحت له الودّ أي أخلصته، وناصح العسل خالصه(٦).

كي تقرّ عينها: لتقرّ عينها بابنها إذا رجع إليها سليماً من قتل فرعون(٧).

ولاتحزن: على فراقه إيّاها(٨)

ولتعلم أنّ وعد الله حقّ: أنّه رادّه إليها وجاعله من المرسلين، ففعل الله ذلك بها(٩).

ولكنّ أكثرهم لايعلمون: ولكنّ أكثر المشركين لايعلمون أنّ وعد الله حقّ، لايصدّقون بأنّ ذلك كذلك(١٠).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٦

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٣) الجلالين

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «كفل» ٢/ ٥٦٢

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نصح» ٢/ ٦٣٩

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نصح» ٢/ ٦٣٩

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(١٠) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

وقالت أمّ موسى عليه السّلام لأخته الكبيرة الواعية الحصيفة، تتبّعي أثر أخيك موسى وتبيّني الّذي يجري له ومعاملة القوم له. فتتبّعته واقتفت أثره، وأبصرته من بُعْدٍ بالقدر الّذي يمكّنها من الإحاطة به علماً، ولايمكّن القوم من الاشتباه في أمرها، ومعرفة علاقتها بموسى عليه السّلام، وإدراك أنّه طفلٌ من بني اسرائيل. لقد ألهم الله تعالى الفتاة، فأخذت للأمر عُدَّته، واحتاطت، ووفّقها الله تعالى، فحقّقت هدفها، ولم يفطن القوم لوجودها ولم يشعروا بها.

وإنّ القول: ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل﴾ الّذي يترتّب عليه القول: ﴿فقالت هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ نستطيع أن نفهمه ـ والله تعالى أعلم ـ على النّحو التالي: وحرّمنا على موسى عليه السلام تحريماً قدرياً(١) المراضع، وصنّاه عن أن يرضع من غير ثدي أمّه لكرامته علينا، مِنْ قَبْلِ أن تجيء أخته وتسألهم إن كانوا يسمحون لها بأن تدلّهم على أهل بيتٍ يضمّون موسى عليه السلام إليهم، ويضمنونه لآل فرعون، وهم على الطّفل مؤتمنون، وله مخلصون، وعلى نفعه حريصون.

في ضوء هذا المعنى الّذي نظنّ أنّ القول: ﴿من قبل﴾ يفيده نظنّ أنّ ثمة فاصلاً زمنيّاً بين الوقت الّذي ألقت في أثنائه أمّ موسى عليه السّلام بابنها في نهر النّيل، وبين طلبها من أخته أن تتبّع أثره، إلى أن تجده بعد لأي، وتقترب منه ومن القوم الّذين أزعجهم. رفض الطفل المراضع؛ مع شدّة جوعه، وربّما صراخه، وتطرح اقتراحها على القوم، الذين وضع الله تعالى في قلوبهم محبّة الطّفل، وبخاصةٍ امرأةُ فرعون.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٣

ونظنّ ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ أمّ موسى عليه السّلام التي امتثلت لأمر ربّها جلّ وعلا وتوكّلت عليه فألقت بموسى في اليمّ، قد ذهب اليمّ به أمامها، وغاب عن عينها، وصبرت وصابرت، وكادت تفصح عن سرّها الدّفين، لولا أن ثبّتها الله تعالى، وطلبت الأمّ من ابنتها أن تَتتبّع أثر موسى عليه السّلام ثقة في وعد الله تعالى بأن ينجّي والدها من كلّ سوءٍ، ويردّه إليها سليماً معافى.

لقد ذاع في المدينة نبأ الطّفل الّذي وضع الله تعالى محبّته في قلب امرأة فرعون فنهت عن قتله أملاً في نفعه أو اتخاذه ولدا، وكان ينبغي البحث عن مرضعٍ للطّفل. واستشرف لهذا الشّرف النّساء طمعاً في خير آل فرعون. وحرّم الله تعالى على الطفل المراضع صوناً له أن ترضعه غير أمّه، وتحقيقاً لوعد الحقّ جلّ وعلا بأن يردّ الطّفل إلى أمّه. ومامعنى عدم قبول الطّفل المراضع؟ موته. وهكذا كان القوم في موقفٍ حَرِج، وكانوا أمسّ الخلق حاجةً لمن ينقذهم من تلك الورطة.

وشاء الله تعالى حينما بلغت الأزمة ذورتها أن تبادر أخت موسى عليه السّلام الى تقديم اقتراحها: ﴿هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ والمعنى: هل من حقّي أن أقترح عليكم وأرشدكم الى أهل بيتٍ يضمّونه إليهم، ويضمنونه لكم، وهم له ناصحون، وعلى ما يصلحه وينفعه حريصون.

ونستطيع أن نفهم، والله تعالى أعلم، أنّ القوم، تحت وطأة المعاناة، استجابوا لذلك الطّلب، وقرّروا، وقد شارفوا على اليأس من قبول الطّفل أيّ مرضع، أن يعطوا المرضع المقترحة الفرصة الّتي أُعطيت للسّابقات.

لقد ألهم الله تعالى الأخت أن تقدّم حظّ آل فرعون من الطّفل في القول: ﴿هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم﴾ وأن تؤخّر حظّ آل موسى عليه السّلام في القول: ﴿وهم له ناصحون﴾ إنّ مثل هذا التّرتيب للمعاني يرضي غرور القوم، ويغريهم بالاستجابة للطّلب.

وهكذا ردّ الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام الى أمّه الرّءوم، التي أخذت

فوق ذلك أجراً على رضاعها، وهكذا قرّت عينها بسلامة ابنها، وذهب حزنها لفراقه، ولتعلم بردّ موسى إليها، حَسَب وعد الحقّ جلّ وعلا لها، بأنّ ابنها سيكون أحد رسل الله تعالى، حسب وعد الحقّ جلّ وعلا لها أيضاً. لقد تحققت البشارة الأولى بعود موسى الى أمّه، وذلك دليل على تحقّق البشارة الأخرى بإذن الله تعالى مستقبلاً، بأن يكون عليه الصّلاة والسّلام واحداً من الرّسل، بل واحداً من أولي العزم الخمسة من الرّسل، إنّهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

إنّ أكثر النّاس وهم المشركون، لايعلمون أنّ وعد الله تعالى هو الحقّ، وأنّ قوله هو الصّدق جلّ وعلا.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

ولمّا بلغ أشدّه: ولمّا بلغ موسى أشدّه، يعني حان شدّة بدنه وقواه وانتهى ذلك منه(١) وبلغ منتهى شدّته وقوّته في شبابه وحدّه(٢) عن ابن عبّاس ﴿ولمّا بلغ أشدّه﴾ قال بضعاً وثلاثين سنة(٣)

واستوى: تناهى شبابه وتمّ خلقه واستحكم(٤) قال بعضهم يكون ذلك في أربعين سنة(٥)

آتيناه حكماً: حكمة(٦)

وعلماً: فقهاً في الدّين قبل أن يبعث نبيّاً(٧)

وكذلك نجزي المحسنين: وكما جزينا موسى على طاعته إيّانا وإحسانه بصبره على أمرنا، كذلك نجزي كلّ من أحسن مِنْ رسلنا وعبادنا فصبر على أمرنا وأطاعنا وانتهى عمّا نهيناه عنه(٨)

وجه الشّبه كبيراً بين هذه الآية الكريمة التي تتحدّث عن موسى عليه السّلام وبين الآية الكريمة، الثّانية والعشرين التي تتحدث عن يوسف عليه السّلام في

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٢) تفسير الطّبري ١٢/ ١٠٥

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧

(٦) الجلالين

(٧) الجلالين وانظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٨

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٨

سورة يوسف. قال تعالى: ﴿ولمّا بلغ أشدّه آتينا حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾.

ومن البيّن أنّ آية سورة القصص تزيد بالقول ﴿واستوى﴾ إيماءً الى القوّة الجسدية التي يحتاجها موسى عليه السّلام والتي احتاجها حينما استغاثه الإسرائيليّ ضد القبطيّ فوكز موسي عليه السّلام القبطيّ بقبضة يده فمات. وبما أنّ يوسف عليه السّلام لم يكن بحاجة الى هذه القوّة العضليّة لذا لم تأت هذه الجملة: ﴿واستوى﴾ في حقّ يوسف عليه السّلام.

فما معنى القول: ﴿ولمّا بلغ أشدّه﴾ في حقّ النبيّين الكريمين؟ كي نجيب على هذا السؤال نحن بحاجة الى أن نوميء الى موجز دراستنا لشخصية يوسف عليه السّلام حتّى أكرمه الله تعالى بنعمة النبوّة. إنّ يوسف عليه السّلام حينما وضعه إخوته لأبيه في غيابة الجبّ كان صغير السّن حقّاً. وحينما اشتراه عزيز مصر مكث العديد من السّنوات حتّى بلغ أشدّه وآتاه الله تعالى الحكمة والعلم اللّدنّيّ جزاء إحسانه. ونستطيع أن نفهم أنّ بلوغ الأشدّ كان في حدود الثّالثة والثّلاثين. وكيف فهمنا هذه السّنّ من سورة يوسف الكريمة. فهمنا هذه السّنّ لأنّه عليه الصّلاة والسّلام مكث في السّجن ظلماً وعدواناً بضع سنين، في حدود السّبع، وحينما كان عليه الصّلاة والسّلام في السّجن أكرمه الله تعالى بنعمة النّبوّة التي يكرم الله تعالى بها المصطفينَ مِنْ عباده عزّ وجلّ حينما يبلغون أربعين سنة، ويظنّ أنّها سنّ بلوغ ذروة الأشدّ وسنّ الاستواء. لقد أكرم الله تعالى يوسف عليه السّلام بنعمة النّبوّة حينما كان في السّجن وبيّن للفتيين اللّذين سألاه أن يعبّر لكلّ واحدٍ منهما رؤياه أنّ الله سبحانه وتعالى أكرمه بعلم كلّ الأطعمة التي سوف تأتي الى الفتيين في السّجن. إنّ اصطفاء الله تعالى يوسف عليه السّلام بتعليمه شيئاً من علم المستقبل أو الغيب أولى الإشارات في سورة يوسف عليه السّلام إلى اصطفاء الله تعالى يوسف عليه السّلام بنعمة النّبوّة. جاء في سورة يوسف عليه السّلام(١) عن

---

(١) الآية / ٣٧

يوسف عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قال لايأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما. ذلكما ممّا علّمني ربّي. إنّي تركت ملّة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

وبشأن موسى عليه السلام من المعروف أنّه عليه السّلام مكث في أهل مدين عشر سنين. وفي طريقه من مدين الى مصر نبّيء حينما كان في سنّ الأربعين.

وهكذا يكون بلوغ الأشدّ في حقّ كلٍّ من يوسف وموسى عليهما الصّلاة والسّلام حينما كانت سنّ يوسف عليه السّلام في حدود الثّلاثة والثّلاثين، وسنّ موسى عليه السّلام في حدود الثلاثين، إنّ مراودة امرأة العزيز يوسف عليه السّلام عن نفسه واستعصامه ودخوله السّجن جزاء عفّته كلّ ذلك تمّ حينما كان عليه الصّلاة والسّلام في حدود الثّالثة والثّلاثين من عمره، فقد نبّيء وهو في السّجن الّذي لبث فيه زهاء سبع سنوات من زهرة شبابه عليه الصّلاة والسّلام. وإنّ قتل موسى عليه السّلام القبطي وفراره من مصر الى مدين وزواجه من ابنة شعيب عليه السّلام على أن يأجره ثماني حجج أو عشرا، كلّ ذلك تمّ حينما كان عليه الصّلاة والسّلام في حدود الثلاثين من عمره، فقد نبّيء وهو في طريقه من مدين الى مصر بعد أن قضى عليه الصّلاة والسّلام الأجل الأتمّ وهو عشر سنوات. والله تعالى أعلم.

في ضوء ماسبق نستطيع أن نفهم أنّ القول عن موسى عليه السّلام: ﴿واستوى﴾ يومىء الى قوّته عليه الصّلاة والسّلام الجسديّة وليس المراد بلوغ سنّ الاستواء الّتي حدّدها بعضهم بأنّها أربعون سنة[1] والله تعالى أعلم.

وهذا هو معنى الآية الكريمة: ولمّا بلغ موسى عليه السّلام أشدّه ووصل ذروة شبابه وقمّة قوّته آتيناه من لدنّا حكمةً وعلماً لدنّيّاً جزاء إحسانه وبلوغه أرفع درجات التّقوى، وهي مرتبة الإحسان، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[2] وكما جزينا موسى عليه السّلام على إحسانه نجزي المحسنين من المرسلين وعبادنا الصّالحين. والله تعالى أعلم.

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٧ و٢٨

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٠

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

ودخل المدينة: ودخل موسى مدينة مَنْف[1] من مصر[2] على حين غفلةٍ من أهلها: وذلك عند القائلة نصف النّهار[3] هذا من شيعته: هذا من أهل دين موسى من بني إسرائيل[4] وهذا من عدوّه: من القبط من قوم فرعون[5].

فاستغاثه: الغَوْث يقال في النُّصرة أي طلب غوثه[6].

---

(١) منف، بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر. وهي المرادة هنا. بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ. وبينها وبين عين شمس ستّة فراسخ. وفيها بيت فرعون قطعة واحدة سقفه وفرشه وحيطانه حجرٌ واحدٌ أخضر. والفسطاط بين مَنْف وبين عين شمس في منتهى جبل المقطّم ومنقطعة. معجم البلدن: «مَنْف» وانظر: «عين شمس»

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٨

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٨

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٩

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٩

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «غوث» ٢/ ٤٧٦

فوكزه موسى: فلكزه ولهزه في صدره بجُمْع كفه[1]

فقضى عليه: ففرغ من قتله[2]

هذا من عمل الشّيطان: هذا القتل من تسبّب الشّيطان لي بأن هيّج غضبي حتّى ضربت هذا فهلك من ضربتي[3]

مضلٌّ: لابن آدم عن سبيل الرّشاد بتزيينه له القبيح من الأعمال، وتحسينه ذلك له[4]

مبين: يعني أنّه يبين عداواته لهم قديماً وإضلاله إيّاهم[5]

قال ربّ إنّي ظلمت نفسي: بقتل النّفس الّتي لم تأمرني بقتلها، فاعف عن ذنبي ذلك، واستره عليّ، ولاتؤاخذني به فتعاقبني عليه[6]

قال ربّ بما أنعمت عليّ: الباء سببيّة. ماحرف مصدريّ، أو اسم موصول في محلّ جرّ. والعائد محذوف، أيْ أنعمته عليّ[7] فلن أكون ظهيراً: معيناً[8] للمجرمين: يعني المشركين[9]

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٢٩

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٤٢ وتفسير ابن عطيّة ١٢/ ١٥٢

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ظهر» ٢/ ٤١٤

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٠

موسى عليه الصّلاة والسّلام المرشّح للنبوة صنعه الله تعالى على عينه بين حضن أمّه الرءوم وبيتها، وبين قصر فرعون الّذي ربّي فيه منذ أن كان وليداً الى أن بلغ مبلغ الرّجال، وقد كان يُدْعَى: موسى بن فرعون[1] وقد عصم الله تعالى موسى عليه السّلام من كفر فرعون وترف القصر وانحراف المجتمع آنذاك عن سواء السَّبيل. وبفضل الله تعالى بلغ موسى عليه السّلام في مدارج التقوى مرتبة الإحسان فآتاه الله تعالى الحكمة والعلم الوهبيّ، وينبغي أن يكون لأمّه وأسرته من بني إسرائيل وأحفاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام دور، على نحوٍ من الأنحاء، في ابتعاد موسى عليه السّلام عن فساد القصر والمجتمع والاقتراب من عقيدة التّوحيد. إنّ بني إسرائيل الّذين بعد العهد بجدّهم يعقوب عليه السّلام والّذين تفرّقت بهم في مجال العقيدة السّبل ولهذا بعث الله تعالى فيهم موسى عليه السّلام، كبير أنبياء بني إسرائيل، إنّ بني إسرائيل الّذين تلك هي حالهم ينبغي أن يكونوا في مجال التّوحيد على شيءٍ من إرث جدّهم إسرائيل، وهو يعقوب عليه السّلام، وبذلك يكون الاختلاف عَقَدِيّاً بين بني إسرائيل وبين القبط آنذاك، وهكذا كان موسى عليه السلام موزع القلب والجسد، إنّ قلبه مع بني إسرائيل وإن كان جسده في قصر فرعون.

ويبدو أنّ الهوّة بين موسى عليه السّلام وبين القصر والمجتمع القبطيّين أخذت تتّسع باتّساع مدارك موسى عليه السّلام بسبب تقتيل القبط ذكور الأطفال من بني إسرائيل بأمر فرعون، إنّ موسى عليه السّلام قد نجّاه الله تعالى من القتل ولكنّ فرعون كان مستمراً في تقتيل أطفال بني إسرائيل الذّكور، ومن الأدلّة على اتّساع الهوّة بين موسى عليه السّلام وبين القصر والمجتمع القبطيين بطش موسى عليه السّلام بالقبطيّ ولكزه له في صدره يُجمع كفّه لمجرّد استغاثة الإسرائيليّ بالرّجل المارّ به الّذي صادف أنّه موسى عليه السّلام. حقّاً إنّ موسى عليه السّلام لم يكن يريد قتل القبطي حينما لكزه بجُمْع كفّه ولكن هل تستحقّ مسألة الخلاف بين

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٢٨

الرّجلين تلك اللّكزة العنيفة من موسى عليه السّلام، إنّها لاتستحقّ ولكنّها كانت السّبب الذي جسّد لموسى عليه السّلام سوم فرعون وآله بني إسرائيل الخسف فكانت تلك اللّكزة العنيفة الّتي ظهرت وكأنّها من قبيل تصفية حساباتٍ سابقةٍ بدليل أن تلك اللّكزة الوحيدة قضت على القبطيّ.

والسّياق يقرّر أنّ موسى عليه السّلام قد دخل مدينة فرعون وعاصمة ملكه على حين غفلةٍ من أهلها، وذلك عند القائلة نصف النّهار. هكذا شاء الله تعالى ألاّ يشهد حادثة البطش بالقبطيّ سوى ذلك الرّجل الإسرائيليّ، لذا كان الخلاف بين الرّجلين في وقت القائلة، وأن يصادف ذلك الوقت دخول موسى عليه السّلام المدينة ومروره بالرّجلين واستغاثة الاسرائيلي بموسى عليه السّلام على عدوه القبطي، الذي صادف أنّه عدوّ لموسى عليه السّلام الإسرائيلي كذلك. ولمّا كان استغاثة الإسرائيلي بموسى عليه السلام كي يغيثه وينقذه من تسخير القبطي له وسومه الخسف إلى الحدّ الذي قاتل معه القبطيّ الإسرائيليّ الّذي اضطرّ لقتال القبطيّ دفاعاً عن نفسه لذا كانت إغاثة موسى عليه السّلام فوريّة وعنيفةً، فقضى على القبطيّ بلكمةٍ واحدة في صدره.

أدرك موسى عليه السّلام أنّه قتل نفساً بغير نفسٍ وأنّ ذلك من عمل الشيّطان الرّجيم العدوّ للإنسان، الحريص على إضلاله، البيّن العداوة والحرص على إضلال الإنسان، فعبّر بحُرقةٍ عن كل تلك المعني.

ولمّا كان أصحاب المعادن النّقيّة سريعي العودة الى الله تعالى فكيف بموسى عليه السّلام المرشّح كي يكون واحداً من أولي العزم من الرّسل. لقد فرّ موسى عليه السّلام فوراً الى الله تعالى العفوّ الغفور الرّحيم. لقد اعترف موسى عليه السّلام بأنّه ظلم نفسه ظلماً كثيراً بقتله النّفس التي لم يأمره الله تعالى بقتلها، وسأل الله تعالى أن يغفر له ذنبه فغفر له الله تعالى العفوّ الغفور الرّحيم. إن الله تعالى هو الذي يعفو ويترك المؤاخذة على الذّنب، وهو الّذي يغفر الذّنب ويستره، وهو الرّحيم الّذي يرشد عباده الى التّوبة ويتفضّل بقبول توبة العبد الّذي تاب توبةً نصوحاً وأناب.

استقرّ في نفس موسى عليه السّلام أن الله سبحانه وتعالى العفوّ الغفور الرّحيم قد غفر له ذنبه، وقبل توبته النّصوح، فنادى ربّه عزّ وجلّ، بأنّه عليه الصّلاة والسّلام، بسبب إنعام الله تعالى عليه بقبول توبته لن يكون مستقبلاً معيناً لأيّ مجرم أثيم. وقضى موسى عليه السّلام في المدينة سحابة يومه وظلمة ليلته، يتحسّس الأخبار.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

فأصبح في المدينة خائفاً: فأصبح موسى في مدينة فرعون خائفاً من جنايته التي جناها وقتله النّفس الّتي قتلها أن يؤخذ فيقتل بها(١)

يترقّب: يترقّب الأخبار، أي ينتظر ماالّذي يتحدّث به النّاس ممّا هم صانعون في أمره وأمر قتيله(٢)

فإذا: إذا هنا للمفاجأة(٣)

يستصرخه: يستغيثه على فرعوني آخر(٤) ويصيح به مستغيثاً من قبطيّ آخر(٥) وأصله من الصّراخ، كما يقال: قال بنوفلان: ياصباحاه(٦) والصّاد والرّاء والخاء أصيلٌ يدلّ على صوتٍ رفيع. يقال: صرخ يصرخ وهو إذا صوّت. ويقال: الصّارخ: المستغيث(٧)

لَغَوِيّ: لذو غواية(٨)

مبين: قد تبيّنت غَوايتك بقتالك أمّسِ رجلاً واليوم آخر(٩)

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

(٣) البحر المحيط ٧/ ١١٠

(٤) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

(٥) البحر المحيط ٧/ ١١٠ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٤٣

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

(٧) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس: «صرخ» ٣/ ٣٤٨

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣١

فأصبح موسى عليه السّلام في مدينة فرعون خائفاً من مغبّة قتله القبطيّ بالأمس، يترقّب الأخبار وينتظر الّذي يتحدّث به الناس ممّا هم فاعلون في أمره وأمر القتيل. وإنّ طبيعة من هذه هي حالة أنّه لايقرّ له قرار ولايكاد يبقى في مكان. وفي أثناء تطوافه بالمدينة يفاجأ موسى عليه السّلام بأنّ الإسرائيلي الذي طلب نُصْرته بالأمس ضدّ الرّجل القبطيّ يصيح فيه ويصرخ ويطلب مه الغوث ضدّ رجلٍ قبطيّ آخر يتشاجر معه. أدرك موسى عليه السّلام أنّ الإسرائيلي رجلٌ مشاغب وبالتّالي لاينفرد القبطيّ وحده بالخطأ وقال للإسرائيليّ إنّك لرجلٌ بيّن الغّواية واضح الميل والاستعداد للخِصام والقتال.

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

فلمّا أن أراد أن يبطش: البطش تناول الشّيء بصولة(١)

إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض: ماتريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وكان من فعل الجبابرة قتلُ النّفوس ظلماً بغير حق(٢).

وماتريد أن تكون من المصلحين: وماتريد أن تكون ممّن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها من طاعة الله(٣)

على الرّغم من إدراك موسى عليه السّلام أنّ الإسرائيليّ الّذي أعانه بالأمس على القبطيّ بيّن الغواية والقدرة على إثارة المشكلات فإنّ سوم الأقباط بني اسرائيل سوء العذاب بأمر فرعون الطّاغية، جعل موسى عليه السّلام الحادّ المزاج بطبعه، مستعداً لأن يعاود كرّة الأمس فيعين الإسرائيليّ ويبطش بالفرعوني. وكاد ذلك يكون لولا لطف الله تعالى. لقد همّ موسى عليه السّلام أن يلكم القبطيّ بجُمع يده وأن يبطش به كما بطش بالأمس بزميله القبطيّ، وشاء الله تعالى أن يكون القول الّذي جرى على لسان الّذي خَشي أن يقتله موسى عليه السّلام والّذي يومىء الى قتل الفرعونيّ بالأمس هو السّبب الذي منع موسى عليه السّلام أن يبطش

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «بطش» ١/ ٦٤

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٢

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٢

بالقائل.

وهنا نطرح سؤالاً غاية في الأهمّية هو: هل القبطيّ الّذي هو عدوٌّ لكلٍّ من موسى عليه السّلام والإسرائيليّ هو المعنيّ بقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين﴾ ومن المفسّرين من ذهب الى هذا الرأي(١) أمّ أنّ المعنيّ هو الرّجل الإسرائيلي الّذي يقال إنّه ظنّ أنّ موسى عليه السّلام يريد أن يبطش به هو هذه المرّة وليس بالرّجل القبطيّ فأذاع السّرّ وبيّن أنّ القاتل بالأمس هو موسى عليه السّلام. ومن المفسّرين من ذهب الى هذا الرّأي، بل إنّ أكثر المفسّرين ذهبوا الى هذا الرّأي(٢).

والحقيقة أنّ الاختلاف بين المفسّرين بشأن القائل هنا يذكّرنا بالاختلاف ذاته بشأن القائل الّذي جرى على لسانه الآيتان الكريمتان الثّانية والخمسون والثّالثة والخمسون من سورة يوسف عليه السّلام. إنّ من العلماء من ذهب الى أنّ القائل هو امرأة العزيز، وإلى هذا الرّأي ذهب فريقٌ من العلماء. وإنّ من العلماء من ذهب الى أنّ القائل هو يوسف عليه السّلام. وإلى هذا الرّأي ذهب فريقٌ من العلماء. قال عزّ من قائل(٣)

﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لايهدي كيد الخائنين. وماأبرّيء

---

(١) انظر- مثلاً - في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٤

(٢) انظر - مثلاً - تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٢ وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٧ وتفسير القرطبي ٦/ ٤٩٨١ والبحر المحيط ٧/ ١١٠ والكشاف ٢/ ٤٦٩ والجلالين والدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور للسّيوطي ٦/ ٤٠١ وتفسير ابن عطيّة ٢/ ١٥٣ ونظم الدّرر للبقاعي ١٤/ ٢٦٠

(٣) سورة يوسف ٥٢ و٥٣

نفسي. إنّ النّفس لأمّارة بالسوء إلاّ مارحم ربّي، إنّ ربّي غفورٌ رحيم﴾.

وسبق لنا في دراستنا المتأمّلة لسورة يوسف عليه السّلام بعنوان: الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام، أن درسنا الآيتين الكريمتين[1] ورجّحنا ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ الآيتين الكريمتين على لسان يوسف عليه السّلام وأنّهما من مشكاة النّبوّة، وبيّنّا أنّ امرأة العزيز التي كانت دائماً وأبداً تعيش في مجتمعها اللاّهي العابث والّتي لم تستفد من يوسف عليه الصّلاة والسّلام والّتي لم تلتق به بعد أن أودع السّجن جزاءً له على عفّته عليه الصّلاة والسّلام وفي السجن نبيّء عليه الصلاة والسّلام، بيّنّا أنّ امرأة العزيز لم تكن مهيأة لحظة من اللحظات كي يجري على لسانها شيءٌ من معاني الآيتين الكريمتين اللتين هما من مشكاة النّبوّة.

وبشأن القائل في آية سورة القصص الكريمة: ﴿قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين﴾ نودّ أن ندلي بدلونا ضمن الدّلاء، محاولين، مستعينين بالله تعالى، أن نعيّن القائل، إن كان ذلك ممكناً.

ونودّ بادىء ذي بدء أن نشير الى مسألتين مهمّتين في هذا الصّدد، أمّا المسألة الأولى فهي أنّ من مظاهر إعجاز القصص القرآني أنّه يتعمّد ترك بعض الفجوات التي يستطيع الخيال أن يملأها بناءً على القرائن والسّياق. وممّا سكتت عنه سورة القصص الكريمة بعد قتل موسى عليه السّلام القبطيّ ردّ الفعل لدى آل فرعون وأهل المدينة من الأقباط.

وأمّا المسألة الثّانية فإنّها متعلّقة بردّ الفعل لدى سكّان المدينة من الأقباط والإسرائيليين على سواء. نستطيع أن نفهم أنّ الأقباط كانوا مغيظين محنقين حريصين على معرفة القاتل، وهم السّادة والقادة، ويصحّ أن يكونوا قد مالوا أوّل الأمر الى الاعتقاد بأنّ القاتل أحد بني إسرائيل الّذين يسومونهم الخسف. ونستطيع

---

(١) الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام ٤٠٨ ـ ٤١٧ الطّبعة الثّانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م مطبوعات تهامة، جدّة

أن نفهم أنّ الإسرائيليين كانوا سعداء مبتهجين لقتل القبطيّ.

ويبقى هنا سؤال مهمٌّ لنا وهو: هل كتم الإسرائيلي نبأ قتل موسى عليه السّلام القبطيّ. وهل هو ذلك الرّجل الرّزين الّذي يكتم السّرّ، أم أنّه ذلك الرّجل الانفعالي الّذي لايكتم سرّه، ولو حاول كتمه زلّ بالسّرّ لسانه؟

نستطيع أن نفهم أنّ الاسرائيلي أقرب الى الرّجل الانفعالي، بدليل أنّه رغم ضعفه وضعف قومه لم يستطع أن يداري أموره فاشتبك في قتالٍ مرةً نجم عنها قتل موسى عليه السّلام عدوّه القبطي، واشتبك في قتالٍ مرّة أخرى نجم عنها القول الذي نسعى جاهدين لتعيين قائله. «ويبدو أنّ رائحة فاحت عن قتيل الأمس، وأن شبهات تطايرت حول موسى، لما عُرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه، الى جانب مايكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سرّاً بين قومه، ثمّ تفشّى بعد ذلك خارج بني إسرائيل.

نرجّح هذا لأنّ قتل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يعدّ حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل، يشفي بعض غيظهم، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همسٍ وفرح وتشفّ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك، وبخاصّة إذا عُرف عن موسى من قبل نفرته من البغي، وانتصاره للمظلومين»(١)

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٤

والحقيقة أنا الى هذا الرأي الأخير أميل، لأنّا نتبيّن معه التّلاحم بين أجزاء معاني الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿فلمّا أن أراد أن يبطش بالّذي هو عدوٌ لهما قال ياموسى أريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين﴾ وبذلك يكون معنى الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم: فلمّا أن أراد موسى عليه السّلام أن يضرب بعنفٍ القبطيّ الذي هو عدوٌ له عليه السّلام وللإسرائيلي الذي هو من شيعته وقومه بني إسرائيل، قال القبطيّ ياموسى أتريد أن تقتلني اليوم كما قتلت نفساً بالأمس دون وجه حقّ. ماتريد ياموسى إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين فيها، بعمل مافيه صلاح أهلها من طاعة الله تعالى.

والحقيقة كذلك أنّ هذا الرأي الّذي يستند الى وحدة الضّمير في الآية الكريمة، فالذي يريد أن يبطش به موسى عليه السلام هو القائل، هذا الرّأي يعفينا من تنوّع الضّمائر ووضع لفظ الإسرائيلي موضع الضمير المستتر بشأن قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قال ياموسى﴾.

ولاننسى أنّ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم البلاغة بالحذف بسبب استقامة المعنى وقرب تناوله. إنّ الرّأي المختار يعتمد على استقامة المعنى وقرب تناوله. والله تعالى أعلم. ثمّ إنّ لنا في الآية الكريمة التّالية دليلاً ربّما رجّح هذا الرّأي.

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

وجاء رجل: قيل إنّه مؤمن آل فرعون(١)

من أقصى المدينة: من آخرها(٢)

يسعى: يسرع في مشيه عن طريق أقرب من طريقهم(٣)

والسّعي: المشي السّريع. وهو دون العَدْو. ويُستَعْمَلُ للجِدّ في الأمر، خيراً كان أو شراً(٤)

إنّ الملأ: إنّ أشراف قوم فرعون ورؤساءهم(٥)

يأتمرون بك: يتآمرون بقتلك ويتشاورون ويرتأون فيك(٦)

فاخرج إنّي لك من النّاصحين: في الأمر بالخروج(٧) والنّصح: تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه(٨) وهو من قولهم: نصحت له الودّ أي أخلصته(٩)

نودّ أن نقف ابتداءً عند جملة: ﴿وجاء﴾ من أجل أن نتبيّن معناها ونتلمّس

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٣

(٢) الجلالين

(٣) الجلالين وتفسير الطّبري ٢٠/ ٣٣

(٤) مفردات مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سعى» ١/ ٣٠٧

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٣

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٣

(٧) الجلالين

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نصح» ٢/ ٦٣٩

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نصح» ٢/ ٦٣٩

دورها، إن كان لها دور، في تعيين القائل في الآية الكريمة السّابقة. والمعروف أنّ الحديث عن جملة: ﴿جاء﴾ يقتضي الحديث عن جملة: ﴿أتى﴾ صنوها. وقد تبيّن من تأمّل كلّ آي الذّكر الحكيم الّتي جاء فيها كلٌّ من الجملتين، وبخاصّة الآياتُ الكريمات الّتي تجمع في نَسَقٍ هاتين الجملتين: تبيّن أنّ جملة: ﴿جاء﴾ لاتُستَعملُ في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّماني أو المكاني أو المعنويّ، وأنّ جملة: ﴿أتى﴾ بعكس كلّ ذلك، فهي لاتُستَعْمَلُ إلاّ دليلاً على البعد الزماني أو المكانيّ أو المعنوي. ونكتفي بأحد الأدلّة على ذلك، جاء على لسان قوم موسى عليه السّلام خطاباً له عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأعراف(١): ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا. قال عسى ربّكم أن يُهْلِك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.

وبشأن تلمّس دور جملة: ﴿وجاء﴾ هنا في تعيين القائل في الآية الكريمة السّابقة، الحقيقة أنّ مثل هذا التلمّس سبق أن تمّ بشأن جملة: ﴿جاء﴾ في الآية الكريمة التاسعة عشرة من سورة يوسف، قال عزّ من قائل: ﴿وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدْلى دلوه قال يابُشْرى هذا غلام. وأسرّوه بضاعة. والله عليمٌ بما يعملون﴾ لقد تبيّن أنّ جملة: ﴿وجاءت سيّارة﴾ تشير الى القرب الزّماني، والى أنّ القافلة وصلت موضع الجبّ الّذي وُضِع فيه يوسف عليه السلام بمجرّد مغادرة الإخوة ذلك الموضع. وإنّ القرب الزماني الذي أفادته جملة: ﴿وجاءت سيّارة﴾ عمّق حقيقة الكمّيّة الضروريّة من ودّ الأخ الكبير أو الأكبر الّذي اقترح إلقاء يوسف في الجبّ كي تلتقطه بعض القوافل بدلاً من الاقتراحين الآخرين للإخوة، وذلك بقتل يوسف عليه السّلام بطريقٍ مباشر، أو بقتله بطريقٍ غير مباشر بطرحه أرضاً مخوفة تَغَصّ بالذّئاب الغادرة. وإلى هذه الآراء الثّلاثة أشار قول الحقّ جلّ وعلا(٢): ﴿اُقتلوا يوسف أو اطرحوه أرْضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده

---

(١) الآية ١٢٩

(٢) سورة يوسف ٩، ١٠

قوماً صالحين، قال قائلٌ منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين﴾ ويلاحظ أنّ إلقاء يوسف عليه السّلام على لسان الأخ الكبير أو الأكبر في القول: ﴿وألقوه في غيابة الجبّ﴾ قد صار عند التنفيذ جَعْلاً. وإلى ذلك أشار قوله تعالى(١): ﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ. وأوحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون﴾ وإنّما جاء على لسان كبير الإخوة أوّل الأمر اقتراح الإلقاء في غيابة الجبّ من أجل أن يمتصّ فرط حماسة الإخوة وشدّة اندفاعهم نحو قتل يوسف بطريقٍ مباشر أو غير مباشر. وقد اقترن باقتراح الإلقاء في غيابة الجب التقاط بعض السّيارة له على الفور دليلاً على علم الأخ الكبير التّامّ بطبيعة المكان وأنّه محطّة مهمّةٌ للقوافل. وإنّ مجيء جملة: ﴿جاء﴾ التي تدلّ على القرب في القول: ﴿وجاءت سيّارةٌ﴾ عمّقَت كلاً من إحاطة الأخ الكبير علماً بالمكان، ومن حقيقة الودّ الضّروريّ في قلب الأخ الكبير ليوسف عليه السّلام.

فإذا عدنا الى الآية الكريمة من سورة القصص تبيّنّا مجيء هذا الرّجل فوراً الى موسى عليه السّلام وإسداء النّصيحة له بالخروج من المدينة لأنّ آل فرعون يهمّون بقتله. قال تعالى: ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فاخرج إنّي لك منَ النّاصحين﴾.

إنّ موسى عليه السّلام بعد أن قال له القائل: ﴿ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين﴾ يجيئه على الفور رجلٌ من أقصى المدينة يسعى. إنّ في مجيء الرّجل النّاصح على الفور دليلاً على أنّ أصابع الاتّهام كانت تتّجه الى موسى عليه السّلام بشأن القتيل القبطيّ قبل أن يهتمّ في اليوم التّالي بقتل القبطي الآخر. وإنّ همّ

---

(١) سورة يوسف ١٥

موسى عليه السّلام بقتل القبطيّ الآخر حمل القبطيّ على التّعبير الصريح والنّطق الفصيح بما جمجمت به النّفوس، وغمغمت به أصابع الاتّهام المتّجهة الى موسى عليه السّلام بأنه هو القاتل للقبطيّ. وكأنّ السّاعة الّتي همّ موسى عليه السّلام فيها أن يبطش بالقبطيّ الآخر قد تمّ في ساعة قَبْلَها اتّفاق الملأ على قتل موسى عليه السّلام قِصاصا. وشاء الله تعالى أن يسبقَ القومَ رجلٌ جاء من أقصى لمدينة يسعى الى موسى عليه السلام من طريق أقصر من الطريق المعتاد الّذي سار فيه الملأ باتّجاه موسى عليه السّلام لقتله، وكان المجيء والوصول لحظة الهمّ بالقتل.

وهكذا يبدو دور جملة: ﴿جاء﴾ في الدّلالة على أنّ القائل قبطيٌّ آخر بسبب دلالة جملة: «جاء» على القرب الزّمانيّ الّذي يعني القرب المكانّي أيضاً.

ومعنى الآية الكريمة: وجاء رجلٌ من أقصى مدينة فرعون يسعى ويسرع في مشيه حتّى وصل الى موسى عليه السّلام. وقد لايكون هذا الرّجل مؤمن آل فرعون، لأنّ مؤمن آل فرعون الّذي أشارت اليه سورة المؤمن أو غافر في الآية الكريمة الثامنة والعشرين وغيرها من الآيات الكريمات، كانت نصائحه للقوم بعد أن أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام الى فرعون وملئه. وقد يكون هذا الرّجل مؤمن آل فرعون ويكون المجيء من أقصى المدينة الى موسى عليه السّلام ونصحه دليلاً على خيريّة هذا الرّجل وإرهاصاً بإيمانه مستقبلاً بموسى عليه السّلام ووصل رجلٌ أتى من آخر المدينة يسرع في مشيه قال ياموسى إنّ أشراف القوم يتآمرون بهلاكك ويتشاورون ليقتلوك فاخرج من المدينة فوراً، وغادرْها حالاً، إنّي لك ياموسى من المخلصين لك الحبّ، النّاصحين لك الودّ. والله تعالى أعلم.

إنّ القول على لسان القبطيّ الآخر لموسى عليه السّلام كما جاء في الآية الكريمة: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس. إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين﴾ يجسّد الحيثيّات الّتي حكم الملأ بموجبها على موسى بالقتل.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

فخرج منها: فخرج موسى من مدينة فرعون(١)

خائفاً: مِنْ قتله النّفس أن يقتل به(٢)

يترقب: ينتظر الطّلب أن يدركه فيأخذه(٣)

نجّني من القوم الظّالمين: نجّني من هؤلاء القوم الكافرين الّذين ظلموا أنفسهم بكفرهم(٤)

فخرج موسى عليه السّلام من مدينة فرعون امتثالاً لأمر الرّجل النّاصح الأمين، خائفاً من قتله النّفس أن يقتل به، ويترقّب وقوع المكروه به(٥) ويخشى الطّلب أن يدركه فيأخذه. قال ياربّي انّي أسألك أن تنجّيني من القوم الظّالمين لأنفسهم بكفرهم بك ياإلهي، الظّالمين لعباد الله تعالى بجعل فرعون وملئه أهل أرض مصر ومملكة فرعون شيعاً وأحزابا، موالين فلهم كلّ شيء، وأعداءً عليهم كلّ شيء، الى الحدّ الذي يقتّل فرعون معه أبناء بني إسرائيل الذّكور، ويسوم بني إسرائيل الخَسْف.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٥) البحر المحيط ٧/ ١١٠

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

ولمّا توجّه تلقاء مدين، ولمّا جعل موسى وجهه نحو مدين، ماضياً إليها، شاخصاً عن مدينة فرعون، وخارجاً عن سلطانه(١) ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه، يعني به من قِبَلِ نفسه، ويقال: داره تلقاء دار فلانٍ إذا كانت محاذيتها. ولم يصرف اسم مدين لأنّها اسم بلدةٍ معروفة، كذلك تفعل العرب بأسماء البلاد المعروفة(٢) ومدين كان بها يومئذٍ قوم شعيب عليه السّلام(٣) ومدين ماءٌ كان عليه قوم شعيب(٤) وتُطْلَق مدين على القبيلة وعلى المدينة، وهي على ساحل البحر الأحمر بين المدينة المنورة والشّام محاذية لتبوك على بعد ست مراحل(٥)

سواء السّبيل: قصد السّبيل(٦) والطّريق المستقيم(٧)

خرج موسى عليه السّلام من مدينة فرعون خائفاً لقتله القبطيّ، يترقّب الطّلب ويتوقّع العقاب. ولمّا ترك حدود المدينة ويمّم وجهه باتّجاه الشّمال نحو مدينة مدين، وفيها قوم الشّيخ الكبير السّنّ، وبها ماء مدين، دعا موسى عليه السّلام بحرارةٍ ربّه عزّ وجلّ أن يهديه الى الصّراط المستقيم، ويرشده الى قصد السّبيل.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٤

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

(٥) انظر معجم البلدان: «مدين» وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٣

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

ولما ورد ماء مدين: الورود أصله قَصْد الماء، ثمّ يُسْتَعْمَل في غيره.. يقال: وردت الماء أرد وروداً، فأنا واردٌ والماء مورود(١)

أمّة: جماعة(٢)

يسقون نَعَمَهُمْ ومواشيهم(٣)

من دونهم: أي سواهم(٤)

تذودان: تطردان(٥) وتمنعان أغنامهما من الماء(٦) وتحبسان، يقال منه: ذاد فلانٌ غنمه وماشيته إذا أراد شيءٌ من ذلك يشذّ ويذهب فردّه ومنعه يذودها ذودا(٧)

ماخطبكما: ماشأنكما وأمركما وحالكما(٨)

لانسقي: لانسقي ماشيتنا(٩)

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ورد» ٢/ ٦٧٣

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٥ (٤) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «دون»/ ٢٣٤

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ذود» ١/ ٢٤٣

(٦) الجلالين

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٥

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٦

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٦

حتّى يُصْدر الرّعـاء: حتّى يصدر الرّعاء مـواشيهم[1] وإذا عُدّي صَدَر بعن اقـتضى الانصـراف. تقول: صَـدَرَت الإبل عن الماء صَـدَراً وصَدْراً، بفـتح الدّال وبسكونها[2] والرّعاء جمع راع. والرّاعي جمعه رِعاء ورُعاة ورُعيانِ[3]

فسقى لهما: فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما[4]

ثم تولّي: ثمّ انصرف[5]

الى الظّلّ يقال لكلّ موضع لـم تصل اليه الشّمس ظلّ[6] وإنّما يُدْعى الظّلّ ظلاّ من أوّل النّهار الى الزّوال، ثمّ يُدْعى فيئاً بعد الزّوال الى اللّيل، قال الشّاعر:

فلا الظّلّ مِـنْ برد الضُّحَى تستطـيعه * ولا الفيء من برد الـعشيّ تذوق[7]

والفيْ، شرقيّ والظّلّ غربيّ[8] يقال إنّه عليه السّلام انصرف الى ظلّ شجرة، ذُكِرِ أنّها سَمُرة،[9] والجمع السَّمُر، ضربٌ من شجر الطّلْح[10]

فقير: محتاج[11]

رعت العناية الإلهيّة موسى عليه السّـلام وحملته بإرادة الله تعالى قدماه الى مدينة مدين بعيداً ناحيـة الشّمال، ودخل المدينة، ووصل الى عين الماء الّتي سمّيت

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٦

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «صدر» ٢/ ٣٦٣ والمعجم الوسيط: «صدر» ١/ ٥٠٩.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٦ وانظر المعجم الوسيط: «رعا» ١/ ٣٥٦

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٧

(٥) الجلالين

(٦) مفردات الرّاغب لأصفهاني: «ظلل» ٢/ ٤٠٩

(٧) لسان العرب: «ظلل»

(٨) لسان العرب: «ظلل»

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٧

(١٠) المعجم لوسيط: «سمر» ١/ ٤٤٨

(١١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٧

المدينة باسمها، والّتي يَسْقى منها الرُّعاة إبلهم ومواشيهم. وربّما كان موسى عليه السّلام الذي أنهكه التّعب، واستبدّ به الجوع يتمنّى أن يستعين به أحد الرّجال في مهمّة السّقي أو ماشابه ذلك بطعام بطنه. وشاء الله تعالى أن يُكْرِمَ عبده موسى عليه السّلام الّذي بلغ من التقوى مرتبة الإحسان فآتاه الحكمة والعلم الوهْبيّ.

إنّ موسى عليه السّلم وجد على الماء جماعة من النّاس منهمكين في سَقْي إبلهم وبقرهم وغنمهم، مشغولين بذلك عن أيّ شيء آخر، ووجد من دونهم وقبلهم(١) وبالقرب منه ومنهم(٢) وأمامه وأمامهم(٣) وألفى امرأتين تمنعان أغنامهما من الماء. عجب موسى عليه السّلام لبقاء المرأتين بعيداً عن الماء ومنعهما ماشيتهما عنه فأراد أن يعرف السّبب وراء ذلك، بباعث مروءته عليه الصّلاة والسّلام وشهامته والخلق العظيم الّذي فطره الله تعالى عليه. تقدّم عليه الصّلاة والسّلام الى الفتاتين وسألهما عن خطبهما وشأنهما والسّبب الّذي من أجله هما في ذلك المكان غير البعيد عن الماء، وغير المستفيدتين منه. قالت المرأتان لانَسْقى غنمنا ولانرد بها الماء حتى يُصْدِرَ الرّعاء، وينصرف الرُّعاة بأنعامهم عن الماء. وبيّنت المرأتان السّبب الذي اضطرتا من أجله للخروج بالغنم نحو الماء، وهو أنّ الرّجل في الأسرة أبوهما، وهو شيخٌ كبير.

وبما أنّ جواب المرأتين ذو شقّين اثنين لذا يصحّ أن يكون كلٌّ من شقّي الجواب قد جرى على لسان إحدى المرأتين. إنّ المرأتين الطّاهرتين اللتين اضطرّتا إلى الخروج لسقي الغنم تبتعدان بغنمهما كيلا تختلط بالرّجال، وكيلا تختلط أغنامهما بأنعام الرّعاة.

ومن البيّن أنّ القول: ﴿لانسقى حتّى يصدر الرّعاء﴾ جوابٌ كاف وشاف لسؤال موسى عليه السّلام للمرأتين: ﴿ماخطبكما﴾ وأنّ القول: ﴿وأبونا شيخٌ

---

(١) أنظر لسان العرب: «دون»

(٢) أنظر لسان العرب: «دون»

(٣) أنظر لسان العرب: «دون»

كبير﴾ جوابٌ لسؤالٍ مضمرٍ في نفس موسى عليه السّلام. إنّ الشّقّ الأوّل من الجواب كاف لتفجير المكنون من شهامة موسى عليه السّلام ومروءته. وإنّ الشّق الآخر من الجواب زاد الشّهامة توهّجاً والمروءة إشراقاً.

بادر موسى عليه السّلام القويّ الأمين إلى إيراد الغنم حيث حوضُ البئر، واغترف بالدّلو من الماء، وملأ الحوض، وارتوت الغنم، وصَدَرت عن الماء، وعادت المرأتان الى أبيهما سريعاً خلافاً للعادة.

أمّا موسي عليه السّلام فإنّه بعد أن سقى للمرأتين غنمهما انصرف الى حاله، وذهب إلى شجرة، واستظلّ تحتها من لَفح الشّمس وشدّة الحرّ، ودعا ربّه دعاءً حاراً من أعماقه وقال: ياربّي، إنّي لما أنزلت اليّ من خيرٍ وطعامٍ فقيرٌ ومحتاج.

وأمّا أبوالمرأتين فقد عجب لعودتهما السّريعة، فأنبأتاه، فقرّر أن يدعو موسى اليه ليكافئه على حُسْنِ صنيعه عليه السّلام.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

على استحياء: قد سترت وجهها بثوبها(١)

ليجزيك أجر ماسقيت لنا: ليثيبك أجر ماسقيت لنا(٢) وما: حرف مصدري(٣)

وقصّ عليه القصص: وقصّ عليه قصصه مع فرعون وقومه من القبط(٤).

لاتخف نجوت من القوم الظّالمين: لاتخف فقد نجوت من فرعون وقومه لأنّه لاسلطان له بأرضنا الّتي أنت بها(٥)

تبدأ الآية الكريمة بالقول: ﴿فجاءته إحداهما﴾ وإنّ ما قيل عن جملة. ﴿جاء﴾ في القول في الآية الكريمة العشرين: ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾ يقال عن جملة: ﴿جاء﴾ هنا. إنّ هذه الجملة تفيد القرب الزّمانيّ أو المكاني أو المعنويّ. وربما أفادت الجملة أكثر من معنى من معاني القرب. ويلاحظ أنّ الجملة هنا: ﴿فجاءته﴾ تبدأ بالفاء العاطفة(٦) الّتي تدلّ على التّرتيب مع

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٨

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٩

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٤٩

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٩

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٣٩

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٤٩

التعـقيب، أي القرب، وفي دلالة الفـاء العاطفـة على القرب قوّةٌ لإفـادة جملة: ﴿جاء﴾ معنى القرب.

إنّ موسى عليـه السّلام بعـد أن سقى للمرأتين غنمـهمـا وانصرف الى ظلّ الشّجرة دعـا ربّه الّذي هداه سواء السّبـيل، وأزال عنه الكرب، وكشف عنه الغمّ، وسأله أن ينزل عـليه من خيـره فإنّه فـقيرٌ إلى مـولاه، وأن يرزقه من فـضله فإنّه جائع. وماأسـرع اجابة البرّ الرّحيم الأقـرب الى العبد من حبل الوريد دعـاء عبده المرشّح للرّسالة مـوسى عليه السّلام. فها هي ذي إحـدى المرأتين تجيء الى موسى عليه السّلام على الفـور وتصل عنده وتبلّغه رسالة والدها الشّيخ الكبيـر: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا﴾

ماأسرع إجابة البرّ الرّحيم عبـده المضطرّ إذا دعاه بصدقٍ وإخلاص. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّـي قريب أجيبٌ دعوة الدّاع إذا دعان فليستـجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يَرْشُدون﴾ وقـال عزّ من قائل[2] ﴿وقال ربّكم ادعـوني أستـجب لكم. إنّ الّذين يستكبـرون عن عبـادتي سـيـدخلون جـهنم داخرين﴾.

إنّ الفـاء من جـملة: ﴿فجـاءته﴾ تدلّ على الـقرب الزّمـانيّ، وإنّ جـملة (جاءت﴾ تدلّ على القـرب المكانيّ أساسـاً وعلى القرب الزّمانـي تبعاً، فـما أقلّ الزّمن بين الدعاء والاستجـابة التي تمثلت بإرادة الله تعالى في مجيء إحدى المرأتين ووصولهما فـعلاً الى المكان الّذي فيه موسى عليه السّـلام تحت الشّجرة. إنّ ذلك دليلٌ على أنّ مكان الشّيخ الكبـير وابنتيه ليس بعـيداً عن الماء. وحينمـا تجيء فعلاً إحدى المرأتين الى موسى علـيه السّلام وتقول له: ﴿إنّ أبي يدعوك ليـجزيك أجر ماسقيت لنا﴾ ويُدْخل هذا المجيء وهذا القول السّرور في صدر موسى عليه السّلام

---

(١) سورة البقرة ١٨٦

(٢) سورة غافر ٦٠

يكون لجملة: ﴿جاء﴾ من القول: ﴿فجاءته إحداهما﴾ القدرة على إفادة القرب الثّالث والأخير الذي تفيده جملة: ﴿جاء﴾ وهو القرب المعنويّ أو النفسي. لقد تجلّت إجابة الله تعالى دعاء المضطرّ موسى عليه السّلام في مجيء المرأة فوراً وتبليغه عليه السّلام دعوة أبيها. وهكذا تفيد جملة: ﴿جاء﴾ هنا كلّ معاني القرب الّتي تفيدها هذه الجملة في القرآن الكريم. وهذا الموطن الّذي تفيد فيه جملة: ﴿جاء﴾ المعاني الثّلاثة للقرب أحد المواطن القليلة في القرآن الكريم الّتي تفيد فيها هذه الجملة معاني القرب الثّلاثة، الزّماني، والمكانيّ، والمعنويّ أو النفسيّ. ويلاحظ أنّ إفادة جملة: ﴿جاء﴾ في القول: ﴿فجاءته﴾ المعنيين الزّماني والمكاني، شركة بين موسى عليه السّلام والمرأة، أمّا المعنى الثالث النفسي أو المعنويّ فهو من نصيب موسى عليه السّلام على جهة الخصوص.

ونحن بشأن القول: ﴿إحداهما﴾ لانعرف على جهة التّحديد أهي الصّغرى أم الكبرى. ولأنّه لافائدة من التحديد تجاوزته الآية الكريمة. ويلاحظ أنّ الأب قد أرسل من أجل سقي الغنم ابنتيه معاً، لأنّ المهمّة تستوجب ذلك. ويلاحظ هنا أنّ الأب يرسل الى موسى عليه السّلام إحدى ابنتيه فقط، ممّا هو دليلٌ على جوّ الأمان والاطمئنان الّذي يخيّم على مدينة مدين، وعلى أنّ موسى عليه السّلام زاد ذلك الجوّ تضوّعاً وألقا.

ها هي ذي المرأة التي اضطر أبوها لإرسالها الى موسى عليه السّلام كي تبلّغه دعوة أبيها تمشي على استحياء، تستر وجهها بثوبها، وتسير بخطىً مستقيمة راسخة، مثالاً للبريئات العفيفات، وتقدّم أباها في الذّكر، وتبلّغ موسى رسالة أبيها في أقصر عبارة، وتقول لموسى عليه السّلام قولاً معروفاً، دون خضوعٍ في القول ولين. إنّ والد المرأتين، يدعو موسى عليه السّلام على لسان إحداهما، فلا

يزال الشيخ الكبير السّنّ، غير قادرٍ على أن يجيء لموسى عليه السّلام ليدعوه شخصياً، وإنّ الوالد ليدعو موسى الى منزله ليثيبه ويقدّم له جزاء إحسانه ويعطيه أجر سقيه الغنم لهم.

أدرك موسى عليه السّلام أنّ ربّ العزّة والجلال قد استجاب دعاءه فلبّى الدّعوة وسار موسي عليه السّلام القويُّ الأمين مع المرأة الى منزل أبيها الشيخ الكبير.

ونستطيع أن نفهم أنّ الأب قد أكرم موسى عليه السّلام إكراماً يليق بشيخ قومٍ حصيف، ويليق بموسى عليه السّلام الشّهم القويّ الأمين. ونستطيع أن نفهم أنّ سلوك موسى عليه السّلام الفطريّ كان موضع مراقبة الشيخ الحصيف ورضاه، ونستطيع أن نفهم أنّ الشيخ الوقور بعد أن أكرم وفادة موسى عليه السّلام سأل موسى عليه السّلام عن شأنه على عادة الكرماء الّذين يؤخّرون أمثال هذه الأسئلة. وربما استقرّ في رُوع الشيخ الوقور ووقر في نفسه أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي بعث اليه بهذا الشّابّ القويّ الأمين، فعسى الله تعالى أن ينفعه به. قصّ موسى عليه السّلام على الشيخ الوقور خبره فبشره بأنّ الله تعالى قد نجّاه من القوم الظّالمين، فرعون وملئه، لأنّ فرعون لاسلطان له على تلك البلاد.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا

يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

يأبت استـأجره: الاستـئجـار طلب الشيء بالأجرة، ثمّ يعبّـر به عن تناوله بالأجرة. والأجرة والأجر يقال فيما كان عن عقد ومايجري مجرى العَقْد. والأجر والأُجرة مايعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً[1] استأجره: اتّخذه أجيراً يرعى غنمنا أي بدلنا[2].

قالت إحدى المرأتين لأبيـهما يأبي استأجـر هذا الرّجل لرعي غنمنا واتّخذه أجيراً تدفع له أجرته مقابل رعايته غنمنا، إنّ خير من استأجرته القويّ الأمين. أي استأجر موسى لقوّته وأمانته. لقد تبيّنت المرأتان قوّة موسى عليه السّلام حينما ملأ الحوض سـريعاً فـشربت الأغنام وارتوت. كـما تبيّـنت المرأتان أمانة موسـى عليه السّلام من كلامه الضّروريّ معهما، وغضّ طرفـه عنهما، وانصرافه لسقي غنمهما أوّلاً، وانصرافه الى ظلّ الشجرة لاحقاً. وكانت فرصة المرأة التي أرسلها أبوها الى موسى عليه السّلام أكبر في تبيّنها أمانته عليه السّلام.

وبما أنّ حظّ هذه المرأة من تبيّن أمانة موسى عليـه السّلام هو الأكبر فالمظنون أنّها هي الّتي اقتـرحت على أبيها أن يستأجر مـوسى عليه السّلام، وبناءً على ذلك فالمظنون أنّ الأب عَنَى هذه المرأة حينما عرض عـلى موسى عليه السّلام أن ينكحه إحدى ابنتيه. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «أجر» ١/ ١٢ و١٣

(٢) الجلالين ولسان العرب: «أجر»

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

أُنكحك: أصل النّكاح للعقد، ثمّ استعير للجماع(١)

على أن تأجرني: على أن تكون أجيراً لي(٢) يقال: أَجَرَه يأجُرُه ويأجِرُه إذا أثابه وأعطاه الأجر(٣) والعرب تقول: أجَرْتُ الأجير أجره بمعنى أعطيته ذلك(٤) وكأنّ أباها جعل صداق ابنته التي زوّجها موسى رعي موسى عليه السّلام ماشيته ثماني حجج(٥)

ثماني حجج: الحجج السّنون(٦) جمع الحِجّة، بكسر الحاء، السَّنة، والمرّة الواحدة من الحجّ(٧) وأصل الحجّ القصد للزيارة، وخُصَّ في تعارُف الشّرع بقصد بيت الله تعالى، إقامة للنسُّك، فقيل: الحَجّ والحِجّ. فالحِجّ مصدر والحَجّ اسم(٨) وقيل: حُجّ البيت لأنّ النّاس يأتونه كلّ سنة(٩)

---

(١) أانظرمفردات الرّاغب الأصفهاني: «نكح» ٢/ ٦٥٣

(٢) لسان العرب: «أجر»

(٣) لسان العرب: «أجر»

(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٢

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٧) انظر لسان العرب: «حجج»

(٨) أانظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حجج» ١/ ١٤١

(٩) لسان العرب: «حجج»

فإن أتممت عشراً فمن عندك: فإن أتممت الثّماني الحجج الّتي شرطتها عليك بإنكاحي إيّاك إحدى ابنتيّ فجعلتها عشر حجج فإحسانٌ من عندك وليس ممّا اشترطته عليك بسبب تزويجكَ ابنتي(١)

وماأريد أن أشقّ عليك: باشتراطي الثّماني الحجج عشراً عليك(٢)

إن شاء الله: للتّبرّك(٣)

من الصّالحين: أي في حسن الصُّحبة والوفاء بما قلت(٤)

تبيّن الشّيخ الحصيف الوقور في موسى عليه السّلام الرّجل الكفء الأمين كي يزوّجه إحدى ابنتيه، القويّ الّذي يكون أجيراً له، يرعى غنمه ومصالحه. قال الشّيخ الجليل لموسى عليه السّلام إنّي أريد أن أزوّجك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تكون أجيراً لي ترعى ماشيتي ومصالحي ثماني سنوات، فإن أتممت ياموسى الثماني السّنوات فجعلتها عشراً فاحسانٌ من عندك. وماأريد أن أشق عليك باشتراطي الثّماني السّنوات عشر سنوات عليك، ستجدني إن شاء الله تعالى من الصّالحين الّذين يخافون الله تعالى، ويوفون بالعهد، ويحسنون الصّحبة.

ويلاحظ أنّ الشّيخ الجليل هو الّذي يعرض على موسى عليه السّلام أن يزوجه إحدى ابنتيه. وهذا درسٌ عظيمٌ لنا نحن المسلمين. وماأكثر الآباء الفضلاء الّذين قاموا بالصّنيع نفسه فعرضوا إحدى بناتهم على مَنْ يرضون دينه وأمانته من فضلاء الرّجال.

كما يلاحظ أنّ لفظة «إحدى»، إشارة الى إحدى الابنتين، قد جاءت ثلاث مرّات في الآيات الكريمات الثّلاث المتتابعات. قال تعالى: ﴿فجاءته إحداهما﴾ وقال تعالى: ﴿قالت إحداهما﴾ وقال تعالى: ﴿قال إنّي أريد أن أنكحك إحدى

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

ابنتيّ هاتين﴾ ويظنّ، والله تعالى أعلم. أنّ لفظة: «إحدى» في المواضع الثلاثة، تعني واحدةً بعينها من المرأتين. لقد عرفنا أنّ المرأة الّتي أرسلها أبوها كي تدعو موسى عليه السّلام تبيّنت من أمانته عليه السّلام بأكثر ممّا تبيّنته أختها حينما سقى موسى عليه السّلام لهما ماشيتهما. كما عرفنا أنّ هذه المرأة كانت الأكثر قدرة على التعبير عن أمانة موسى عليه السّلام في القول على لسانها لأبيها: ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾ وكأنّ الأب فهم استعداد ابنته لأن تتزوّج من موسى عليه السّلام، وها هوذا الأب يرفع الحرج عن ابنته التي عرفنا حياءها الحميد في القول عنها من ذي قبل ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ وهاهو ذا الشيخ الجليل يجيء على لسانه القول: ﴿إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين﴾ وقد عرفنا أنّ القرائن كلّها تفيد أنّ هذه الواحدة هي الّتي جاءت موسى عليه السّلام على استحياء، وهي الّتي نعتته بالقوّة والأمانة. والله تعالى أعلم.

كما يلاحظ أنّ موسى عليه السّلام قد أتمّ الثّماني حجج عشراً، كما جاء في صحيح البخاري(١) يقول ابن كثير رحمه الله تعالى رحمة واسعة(٢): «هذا وقد دلّ الدّليل على أنّ موسى عليه السّلام إنّما فعل أكمل الأجلين وأتمّهما» وهكذا يدفع موسى عليه السّلام عشر سنوات من زهرة شبابه بين الثّلاثين والأربعين مهراً لزوجه الطيّبة المباركة. وكما كان الشّيخ الجليل من الصّالحين في حسن الصّحبة وفي الوفاء بالعهد كان موسى عليه السّلام من الصّالحين في حسن المعاشرة وفي

---

(١) انظر الأحاديث الواردة في هذا المعنى وتخريجها في تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤١ و٢٤٢

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤١

الوفاء بالعهد. قال تعالى[1]: ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾ إنّ كلاً من موسى عليه السّلام والشيخ يلقي علينا نحن المسلمين درساً في اتقاء الله تعالى وفي اتقاء الأرحام أن نقطعها، وقد قال عزّ من قائل[2]: ﴿ياأيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً. واتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام. إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾.

كما يلاحظ أنّ الآية الكريمة تعبّر عن السّنة بالحجّة، في هذه السّورة الكريمة المكّية، لأنّ الحجّ لايكون في السّنة إلاّ مرةً واحدة، والمعروف أنّ الحجّ الى بيت الله تعالى الحرام، رغم ماأدخل العرب قبل الاسلام فيه ماليس منه، هو أوضح معالم ماورثه العرب واحتفظوا به من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام. والمعروف أنّه يحدّد حالياً عصر إبراهيم عليه السّلام بحوالي ثمانية عشر قرناً قبل الميلاد وبهامش خطأ صغير[3] يضاف الى ذلك زهاء ستّمائة سنة تفصل بين عيسى ومحمدّ عليهما الصّلاة والسّلام. إن تعبير الآية الكريمة عن السّنة بالحجّة يؤكّد عمق إحساس العرب بالحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام وحقيقة ممارستهم لهذه الشّعيرة.

---

(١) سورة الرّحمن/ ٦٠

(٢) سورة النّساء/ ١

(٣) القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي ٥٠

كما يلاحظ تعليق الشّيخ الجليل تمنّيه أن يلحق بالصّالحين وربطه بمشيئة الله تعالى. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿ولاتقولن لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله. واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينِ ربّي لأقرب من هذا رشداً﴾.

كما يلاحظ أنّه إذا صحّ القول عن أبي المرأتين بأنَّه: «هو شعيبٌ النّبيّ عليه السّلام»[2] فإنّا بصدد مظهرٍ من مظاهر الخلق العظيم الّذي فطر الله تعالى عليه المصطفين من النّبيّين، وهو هنا خلق التّواضع. والمعروف أنّ صفة الصّلاح شَرِكةٌ بين كلّ عباد الله تعالى، ابتداءً بالصّالحين، وانتهاءً بالمرسلين، عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه.

---

(١) سورة الكهف ٢٣ و٢٤

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٠

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

قال ذلك بيني وبينك: قال موسى لأبي المرأتين هذا الّذي قلت من أنّك تزوّجني إحدى ابنتيك على أنْ آجرك ثماني حجج واجبٌ بيني وبينك، على كلّ واحدٍ منّا الوفاء لصاحبه بما أوجب له على نفسه(١).

أيَّما الأجلين: أيّ الأجلين من الثّماني الحجج والعشر الحجج(٢) ومافي قوله: ﴿أيَّما الأجلين﴾ صلةٌ يوصل بها أيّ على الدّوام(٣) ويعبّر عن هذا المعنى بالقول: إنّ ماهنا زائدة(٤)

قضيت: فرغت منها فوفّيتكها رعي غنمك وماشيتك(٥)

فلاعدوان عليّ: فليس لك أن تعتدي عليّ فتطالبني بأكثر منه(٦)

والله على مانقول وكيل: والله على ماأوجب كلّ واحدٍ منّا لصاحبه على نفسه بهذا القول شهيدٌ وحفيظ(٧)

كان من الشّيخ الوقور العرض على موسى عليه السّلام أن يزوّجه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل عنده راعياً لغنمه ومصالحه، وقَبِل موسى عليه السّلام

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٥٣ والجلالين

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٢